

النحو

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه . وما أكثر ما أجهل وأضال ما أعرف ! ولو كنت وجدت من يعلنه لتعلت وما قصرت . وكيف بالله تنتظر مني أن أعرفه بالفطرة والالهام . . . كان أول من قيل لنا إنه معلم نحو رجلاً قاسياً سىء الطباع سريع البادرة ، وكانت له عصاً قصيرة من الخيزران يدسها في كفه ، حتى إذا أمن أن يراه الناظر أخرجها وسلطها على أجسامنا الصغيرة وأهوى بها على أيدينا وجنوبنا ورؤوسنا فلا يتركنا إلا بعد أن ينقطع نشيجنا وتخفت أصواتنا وتذهب عنا القدرة على الصراخ والاستجداء ، فلم يكن أبغض إلينا من درسه . ومن المضحك أن ذلك لم يكن يخيفنا منه ولا يزيدنا إلا إلحاحاً في معابته . وكنت أنا أثقل التلاميذ عليه وأبغضهم إليه ، لأنني كنت - وأحسب أذكر - مازلت - شيئاً صغيراً جداً وخفيفاً مستدقاً لا أستقر في مكان ، ولا أزال أنط من هنا إلى هنا ولا يكف لساني عن الدوران . فكان نصيبي من هذه العلاقات النصيب الأوفر وحظي هو الأجل . وكان الناظر فيه سذاجة عجبية لم نفتنا نحن الأطفال . وكيف كان يمكن أن يفوتنا التفطن إلى سذاجته ونحن مئات من الأطفال لنا مئات من العيون نفحصه بها ، ومئات أخرى من الآذان والرووس تسمعه وتدير أمره وتجسه وتختبره . . . فكنت أذهب إليه وأقول له على سبيل الملق والدهان : « يا سعادة البك ، فلتفت بوجهه الكبير إلى ويقل على بابئسمته البلباء ، فقد كانت الرتبة جديدة وفرحه بها عظيماً . ويسألني « مالك يا امن (بالميم فقد كان أخن) عبد القادر ، فأقول له : « يا سعادة البك ، الشيخ فلان يا سعادة البك معه عصا يخفيها في كم القفطان ويضربنا بها يا سعادة البك ، وكنت صادقاً ولكنه لم يكن يعرف أنني صادق : غير أنه كان يسمع « سعادة البك ، تصافح أذنه مرات عديدة في نصف دقيقة فيطرب ، ويصرفه الطرب عن التثبت فيقول لي - متأمراً معي - « طيب . رح انت إلى الفصل وبما كسه ، اي والله كان يحرضني

الروح الوطني في جميع الأمم المستقلة ، فن الاسف أنها انتهت في العصر الراحل إلى حالة يرثى لها : وما زال التاريخ القومي يغمط حقه من جميع النواحي ، وما زلنا نتلقى عن تاريخ الامم والحضارات والشخصيات الأجنبية أضعاف ما نتلقى عن تاريخنا وتاريخ شخصياتنا وحضارتنا ، ولم يكن ذلك غريباً في عهد السيادة الأجنبية لأنها تعرف بخبرتها في طبائع الشعوب ومشاعرها أن الأمم ذات التواريخ الحافلة المجيدة ، تبرز في عصور الضعف والانحلال لذكرياتها القديمة ، وتستمد منها الوحي والقوة في مغالبة الخطوب وشحذ الشعور الوطني ؛ وقد كانت أساليب التربية القديمة ترمي إلى محاربة ذلك الشعور وإضعافه ، وكان التاريخ القومي من العناصر الثقافية التي قضى عليها بالمسخ والمحو تقريباً ؛ أما اليوم فإن الاستقلال الوليد في أشد حاجة لأن نحيطه بسياج من تاريخنا القومي ، وأن تودد دعائمه بما يبعثه إلى نفوسنا استعراض هذا التراث الحافل من اعتزاز وطموح إلى استئناف تاريخنا المجيد ، وربط مستقبلنا بماضينا ، وهذا عنصر في تغذية الشعور القومي تعرفه الامم المستقلة وتغني به أشد عناية

وأخيراً يجب ألا ننسى ما للناحية الخلقية في تكوين الثقافة القومية من أهمية خاصة . ولنا حاجة لأن ندلل على أن المثل الأخلاقية الرفيعة يجب أن تكون غاية الغايات في كل ثقافة عظيمة ؛ فإذا كان الماضي قد طوى بسيثائه ومثالبه المعنوية فن أزم واجباتنا في العهد الجديد أن نعمل على إخراج جيل جديد يتمتع بالجرأة والصراحة واستقلال الرأي وسلامة التفكير والتقدير ؛ فهذه القوى المعنوية والأخلاقية ضرورية لحماية الاستقلال القومي ضرورة الجيوش ذاتها

والخلاصة أن ثقافتنا الجديدة يجب أن تكون وليدة ثورة حقيقية ، سواء في نظمها أو روحها أو مادتها ؛ يجب ألا تكون ثقافتنا المستقلة كما كانت في الماضي ، معتزلة لتنافس التنافسات والمؤثرات الأجنبية المختلفة ، بل يجب أن تكون ثقافة مصرية خالصة ، حرة من كل تيار غير مرغوب فيه ؛ ويجب أن تكون ثقافتنا غزيرة عميقة في نفس الوقت ، تأخذ بالتخصيص في جميع الدراسات والشؤون الجوهرية ، ولا تخلو مع ذلك من التعميم النافع ؛ وأخيراً يجب قبل كل شيء أن يتبوأ الطابع القومي مقامه الأول في صوغ ثقافتنا وفي توجيهها ؟ محمد عبد الله غنانه

على معا كسة الشيخ المسكين ليضبطه - كما يقال - مثل بساً بالجريمة ،
أو كان يكتفى بأن يأمرني بالعودة إلى الفصل ثم يدخل هو
ويفاجئني الشيخ بانتزاع العصا من كفه ويوجه أمامنا وينصرف .
فتصبح أربعون حجرة جديدة ، هيه ، فيكاد الشيخ يحن وينهال
علينا ضرباً بالدين والرجلين فتتكشف سراويلاته فيعلو الصياح
من جديد ، ولكنه يكون قد تعب وأضناه الجهد وبهر أنفاسه
العدو وراءنا فيقف وهو ينهج ويخرج المنديل من جيب القفطان
ويمسح به العرق المتصبب ونحن جميعاً نتكلم وليس بيننا واحد
يصفى إلى ما يقال

هذا كان أستاذنا في النحو . ولو أنه كان موفقاً في التعليم
لكان الناظر وحده كفيلاً بإفساد الأمر عليه . فقد كان يتظاهر
بالعلم بكل شيء وهو لا يعرف شيئاً . فإذا تورط ولم يسعه إلا
الاعتراف بجهله قال : « جاهل جاهل . لكن إداري تمام ، ومن
ظريف ما أذكره من نوادره أنه دخل علينا في درس ترجمة وكان
المعلم غائباً . ولم يكن هو يعرف ذلك وإن كان فيما يزعم إدارياً
حاذقاً . ولكنه سمع ضججتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة
ليس فيها معلم ، فلم يندب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه وبطوله
وعرضه وسألنا : « مالكم يا أولاد ؟ قلنا : يا سعادة البك المعلم
غائب ، قال : « درس إليه ، قلنا : « ترجمة يا سعادة البك ، فلنشرح
صدره واغبط وأيقن أنه سيظل يسمع منا ما يسره فقال : « طيب
وايه يعني ؟ « فقلنا : « يا سعادة البك لم نفهم الدرس السابق يا سعادة
البك ، فسأل عن هذا الدرس السابق الذي استعصى علينا فقلنا له
أنه كان يحاول أن يعلمنا النقي في اللغتين العربية والانجليزية ولكننا
لم نفهم عنه . فأعزب لنا عبارات صريحة عن دهشته وتعجبه
لوزارة المعارف التي تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم التلاميذ ،
وأكد لنا أنه يعطف علينا لأننا نؤدي للوزارة أجور التعليم كاملة
ولا تتعلم مع ذلك شيئاً . ثم قال إن المسألة بسيطة وأن النقي سهل
جداً وأن أدواته في اللغة العربية معروفة وهي : لا ولم ولن الخ ،
والأمثلة سهلة ومعروفة ، وشرح يسوق الأمثلة . فلما بلغ : لم ،
قال : مثلاً . . لم كتب . لم ضرب . لم ذهب ، فاتفجرنا ضاحكين
وكان لنا العذر . وكيف لا نضحك من : لم كتب ولم ضرب ،

فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا :
« تضحكون ؟ . . . أبكون . . . أبكون . . . فلم يبق منا طفل على
مقعده من شدة الضحك . ولم يسكتنا الخوف منه وإنما أسكتنا
الآلم الذي صرنا نحسه في بطوننا من الضحك الطويل

هذا في التعليم الابتدائي . أما في التعليم الثانوي فقد كان أول
معلم لي فيه مصاباً بالربو ، فكان لا ينفك يسعل ويتفل حتى توجعنا
بطوننا . ولهذا كنا ننام في درسه أو نهرب منه اتقاء لوجع البطن .
ثم صار لنا معلم آخر وكان سياسياً ولكنه كان في هذا نسيج
وحده ، فكان يغلق النوافذ ليأمن أن يسمع أحد ما ينوي أن
يقول - أعني ما ينوي أن يفضي إلينا به من الأسرار . ثم يشرع
في الحديث فيصف لنا كيف كان الحكم المصري على عهد الخديو
إسماعيل ظالماً ، فنجادله ويتقضى الدرس كله في هذا الجدل العجيب .
ولست أدري لماذا كان يحشم نفسه بإغلاق النوافذ . ولو أن
الناظر الانجليزي سمعه لكان حقيقاً أن يسر لأن يغضب ، ولكني
أحبه كان يفعل ذلك ليكون تأثير كلامه في نفوسنا أبلغ .
والعجب بعد ذلك أن تلاميذه كلهم صاروا وطنيين متطرفين في
وطنيتهم لا خونة لبلادهم كما كان يشتهي هو أن يكونوا

فمن كنت أتعلم النحو بالله ؟ . وما الذي كان يمكن أن يغربني
أن أتعلمه وحدي ؟ . ثم ما فائدة هذا النحو الذي لم أتعلمه ولم احتج
إليه . . . وعسى من يسأل : « وكيف كنت تصنع في الامتحانات ؟
فأقول إنني كنت أقرأ ورقة الأسئلة وأترك النحو إلى آخر الوقت
ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة أستخلص منها القاعدة
فأجعل هذا جوابي . ولا شك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه
لم يكن خطأ كله . هذه كانت طريقتي وقد استعنت بها عن حفظ
ما في كتب النحو . وأراني الآن أصبحت كاتباً - وقد كنت في
زمانى شاعراً كذلك - وقد وسعنى هذا وذلك بغير معونة من
النحو . بل من غير أن أتعلم العروض . وأذكر أنني وأنا في مدرسة
المعلمين العليا كان الشيخ حمزة فتح الله هو الذي يتولى امتحاناتنا
في اللغة العربية - على الأقل في إحدى السنين - وكان من أعضاء
اللجنة التي هو رئيسها الشيخ عبد العزيز شاويش وفتح الله بركات
بك وأستاذنا في المدرسة : وكنا ندخل على اللجنة واحداً واحداً

فلم أعد أدري أيهما الصواب وأيهما الخطأ ، ثم ذهبت أنظر إليهما فالذي سكنت إليه نفسي أخذت به وتبينت بعد ذلك أن ما أخذت به كان هو الصحيح وأن عيني لم تخدعني وأن نفسي إنما اطمأنت إلى ما طال عهدا به من الصواب . أما ما لم تألفه أثناء مطالعاتي فقد رفضته . والطريقة التي أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فإن أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الإنجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم . وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية . وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله . وأسأل من شئت فلن تجد أحدا لا يقول لك إن اللغة العربية انحطت - أعني ضعف العلم بها - في هذا الجيل . ولست أعرف لهذا سببا إلا أن التلاميذ لا يتعلمون اللغة وإنما يحفظون نحوا وصرفا وبلايا كثيرة أخرى مثل البلاغة الخ لا تعلمهم اللغة . وإنما تبغضها إليهم ، فإذا كان التبغض هو الغاية المنشودة فلا شك أن المعلمين قد وفقوا إلى ما لا مزيد عليه . أما إذا كان الغرض هو تعليم اللغة فخير الأساليب هو الأسلوب الطبيعي الذي يتعلم به الطفل الكلام

ابراهيم عبد القادر المازني

أدركت

لبنان كونستان الفرنسي

عزيم الكونستان

أحمد بن محمد الأحمدي وأحمد بن محمد الأحمدي
تحت إشراف الدكتور محمد بن محمد الأحمدي
مكتبة محمد بن محمد الأحمدي

وتمت ١٠ وتبليغ المكتبة المأثورة الكونية بمصر
والكتاب الكبير الأحمدي

كما هي العادة فأخبرني الذين سبقوني إلى أداء الامتحان أن الشيخ حمزة عليه رحمة الله يفتح كتاب النحو والصرف ويأمر الطالب أن يسمعه الباب الفلاني ، وكانت هذه مبالغة ولكن صدقناها ، فأيقنت أنني مخفق ووطئت نفسي على معركة . وجاء دوري فدخلت ، فناولني مقدمة ابن خلدون وقال افتحها في أي موضع وقرأ ، ففعلت ، فأمرني أن أضع الكتاب وشرع يسألني عن كلمة العبدوان ، ما فعلها الثلاثي ولماذا يقال اعتديا . - بفتح الدال للماضي - واعتديا بكسرهما للامر . فلم أعرف لهذا جوابا ، فقلت : هكذا نطق العرب وعندهم أخذنا . فألح في طلب الجواب المرضي فقلت : إن اللغة نشأت قبل القواعد . وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما ، فسأله جوابي ونهرني وخشى الشيخ شاويش العاقبة فقال له : يا مولانا . العصر وجب ، فنهض الشيخ حمزة لصلاة العصر وتركني لزملائه فأسرعوا في امتحاني قبل أن يفرغ الشيخ ويعود وأحسب أن ماوسع العرب الأولين من معرفة العربية بلا نحو لا يعجز عنه أبناء هذا الزمان . ومن الميسور فيما أعتقد أن تحل قراءة الأدب العربي تحل النحو . وليس يعجز رجال العربية عن وضع مختارات صالحة لكل سن . وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم ، وعلى ألا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدي فيه امتحان . أما الطريقة التي يتعلم بها أبناءنا العربية فاني أراها مقلوبة لأنها تبدأ بما يجب الانتهاء إليه . ومن ذا الذي يتصور أن صبيا صغيرا يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف ، وأن هذا يكون حكمه كيت وكيت وذاك يجري عليه كذا وكذا من .. وان هذه الفتحات والضمت والكسرات علامات إعراب أو لا أدري ماذا هي ، وأن لفظا يكون مسندا ولفظا آخر يكون مسندا إليه إلى آخر هذه الألغاز التي لا يعقل أن يدركها طفل صغير . بل إنني أنا الكبير أردت منذ بضعة أيام أن أراجع شيئا في النحو ففتحت وقرأت فيه شيئا ثم وضعته يائسا من الفهم ولجأت إلى وسيلة أخرى كانت أجدي على من هذا الكلام الذي أراه يفهم ، وذلك أني كتبت الوجهين اللذين حرت بينهما واختلط على الأمر فيهما